لغة العرب

مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية

الجزء ٦ = من السنة ٥

سعد زغلول

Sa'd Zaghlul.

بعث مصر الحديثة من رقدتها التي خمدت فيها حياتها مع امم الشرق الادنى رجلان : محمد علي وسعد زغلول . وضع الاول الحجر الاساسي في استقلال مصر ، وبنى الثاني صرح الجهاد القومي ، فكانت مصر الوثابة، وان لم تتحرر بعد .

مات الخديوي منذ عشرات السنين وذكره حي خالد . وفي هذه الايام فاضت روح الزعيم المحبوب، فكان لنعيه رنة عظيمة في ارجاء الشرق والغرب، واجمعت الكلمة على انه رجل مصر الاوحد . خمدت انفاسه ولم ينطفىء سراج مبادئه الوطنية ، فحق علينا ومصر شقيقتنا بلغة الضاد وبكثير من العادات والاخلاق والتقاليد ان نسجل له هذه الصفحة اعجابا بعبقريته وتقديرا لتلك المساعي المتمثلة في شخصية سعد العظيمة .

❀❀❀

ولد سعد زغلول في ناحية (ابيانا) من اعمال مركز فوه عام (١٨٦٠) م ودخل في السابعة من عمره كتاب القرية وظل فيه خمسة اعوام ثم شخص الى

دسوق حيث جود القرآن .

وقصد بعدها الى القاهرة ودخل جامعة الازهر ولبث يتلقى فيها العلوم خمس سنوات . وفي القاهرة تعرف الى السيد جمال الدين الافغاني والى تلاميذه امثال محمد عبده والهلباوي والباجوري وعبدالكريم السلمان .

ودرس بعد ذلك القانون فصار محاميا واحرز في المحاماة شهرة وبعد صيت حتى اضحى مضرب المثل في نبوغه القانوني في سوح المرافعة وعلى كرسي الاستشارة في محكمة الاستئناف .

وتعلم اللغة الفرنسية وهو يكاد يناهز الاربعين من سنه ولم يلبث ان حذقها وادى بها امتحان علم الحقوق وهو قاض في الاستئناف ونال بذلك شهادة الاسانسية ، وتعلم اللغة الالمانية في اثناء اعتكافه في بيته في الحرب الكبرى وتعلم الانكليزية في منافيه في عدن وسيشيل وجبل طارق .

❀❀❀

بدأ زغلول حياة عمله بتعيينه محررا في الوقائع المصرية ، وكان على رأس تحريرها الشيخ عبده فاقام في هذا العمل سنة وبضعة اشهر يكتب باسمه مقالات في الاستبداد والشورى والاخلاق . ويقول (عباس حافظ) الكاتب المصري : « كانت مقالات المترجم عنه في «الوقائع المصرية» «والبرهان» من مهيئات الثورة ومضرماتها » . وكان وهو محرر في الوقائع يصحح اغلاط المقالات الواردة على الجريدة ويقوم اعوجاج اسلوبها او يقوي ركة تعابيرها . وبذلك خدم اللغة العربية خدمة جليلة ، وكانت طريقته ان ينشر الرسالة بنصها ويردفها بما هو اصح منها لغة وافصح سياقا وهكذا صحت لغة الدواوين من علتها وحدثت نهضة مباركة في دوائر الحكومة بحيث هرع سواد الموظفين الى المدارس الليلية ليطلبوا اللغة العربية الفصحى .

ثم انتقل سنة ١٨٨٢ الى وظيفة معاون في الداخلية فالى ناظر لقلم قضايا الجيزة . واضطلع باهم الاعباء عند ما اضطرم لهيب الثورة العرابية حتى انتهى به الامر الى ان زج باعماق السجون وهو يافع لم يبلغ التاسع عشر ربيعا بتهمة الانضمام في جمعية ارهابية سميت « جمعية الانتقام » وظل سجينا ٩٨ يوما . ثم

مال الى الاشتغال بالمحاماة فكان اول من قيد اسمه في محكمة مصر محاميا عام ١٨٨٤ .

وقد رفع شأن المحاماة في مدة عمله فيها حتى اختارته محكمة الاستئناف نائب قاض وبذلك كان اول محام في مصر رفع قاضيا وقد ابتهج لهذا التعيين زملاؤه المحامون فاحتفلوا بتكريمه وتهنئته في ١٨ تموز سنة ١٨٩٢ في فندق حديقة الازبكية فخطب في الحفلة خيار المحامين والمشرعين . وقد قالت فيه صحيفة « الاجبت » Egypt تصفه قاضيا : هو من فريق القضاة المصريين الذين يعتقدون ان القانون لايعاقب رغبة في الانتقام ويرون ان من الواجب الاخذ بالرفق في تنفيذ القانون . وابدى في القضاء مهارة واستقامة رقتاه الى وظيفة مستشار في محكمة الاستئناف سنة ١٨٩٢ وانتقل من محكمة الاستئناف الى وزارة المعارف سنة ١٩٠٧ في الوزارة الفهمية (مصطفى فهمي باشا) فخدم معارف مصر وكافح العجمة وعزز اللغة العربية وحتم تعميمها في المدارس الثانوية والعالية، وانشأ ديوانا للترجمة والنشر . واصلح مناهج التعليم .

ووسد سعد باشا عام ١٩١٠ وزارة الحقانية في الوزارة السعيدية (سعيد باشا) وبقي في هذا المنصب الى عام ١٩١٣ .

وبعد ان قضى مدة قصيرة في عزلته بعيدا عن السياسة انتخب عضوا في الجمعية التشريعية وبقي في الجمعية يدافع عن حقوق المصريين حتى حلت الجمعية في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٤ فعاد الى عزلته ودروسه الخاصة .

وعلى اثر اعلان الهدنة ترك العزلة وطفق يجمع المذكرات ويلم حوله الانصار والاصحاب نظير لطفي بك السيد والوزير اسماعيل صدقي باشا وعلي شعراوي باشا وحمد باشا الباسل ومحمد باشا محمود وطائفة من عيون الامة . وقرر جميعهم حضور مؤتمر السلام في فرساي لتمثيل الامة المصرية وعرض مطالبها وقصد سعد وعبد العزيز فهمي وشعراوي الى دار الحماية البريطانية يطلبون استقلال البلاد .

وفي ٨ آذار سنة ١٩١٩ اعتقلت السلطة البريطانية الزعماء الكبار سعد ورفاقه الثلاثة اسماعيل صدقي وحمد الباسل ومحمد محمود ونفتهم الى مالطة فثار

الشعب المصري ثورته الوطنية المعلومة فلم تر السلطة بدا من الافراج عن هؤلاء الاقطاب في ٧ نيسان سنة ١٩١٩ واجيز لهم فوق ذلك السفر الى المؤتمر فركبوا البحر قاصدين باريس في ١٢ نيسان سنة ١٩١٩ .

وفي هذه الاثناء ارسلت الحكومة البريطانية لجنة اللورد ملنر الى مصر للتفاهم مع المصريين فقاطعتها الامة، فعادت الى لندن ودعا الانكليز سعدا ورفاقه الذين كانوا في اوربة مؤلف الوفد المصري المطالب بحقوق مصر الى العاصمة البريطانية وعرض هناك اللورد ملنر مشروعه على سعد فرفضه وعاد الى بلاده سنة ١٩٢٠ فاستقبل استقبالا عظيما لم تشهد ارض النيل مثله .

وقبل ان يعلن الانكليز تصريح ٢٨ شباط ١٩٢١ اعتقلوا سعدا وابعدوه الى جزيرة سيشيل ونقل منها الى جبل طارق .

وظل الشعب المصري يلح في مطالبه الوطنية حتى وضع الدستور ودعي زغلول باشا بعد عودته من منفاه جبل طارق الى رئاسة الوزارة فكانت الوزارة السعدية الوزارة الدستورية الاولى ، فادار سعد سكان سياسة البلاد المصرية الى ان وقعت حادثة مقتل السردار السر لي ستاك فسقطت وزارته وتألفت الوزارة الزيورية وتعرضت البلاد المصرية لخطر الاستبداد والغاء الدستور لولا ان تداركها عقلاء الساسة وفي مقدمتهم سعد زغلول باتفاق الاحزاب السياسية سنة ١٩٢٥ فوقفت في وجه الطاغية المستبد واضطر الانكليز الى الرضوخ لصوت الامة المتحدة فاعيدت انتخابات البرلمان المصري ففازت سياسة سعد فوزا مبينا ثانيا .

ومن مآثره انه شكا اختلال الاوقاف الى اللورد كتشنر .

ولقد سعد الفقيد بزوج قامت في خلال نفيه باعماله فكانت في ذلك الوقت عاملا سياسيا يعتد به .

ومن المشروعات التي اشتغل سعد بها لتعزيز الثقافة في مصر تأسيس الجامعة المصرية التي تطورت الان بشكل ضخم بحيث اصبحت تعد من مفاخر الشرق العلمية .

كان سعد خطيبا يفتن الجماعات ببلاغته فتلتفع معه الى حيث يقودها «وهو شجي الصوت تمتزج فيه العذوبة بالمضاء وتشترك الجوارح والارواح بالعكوف عليه والاصغاء (١) » .

وهنا اترك وصف بلاغه وغلول بمثابة كاتب وخطيب لمن عرفه حق المعرفة عن كثب وعاشره ، رئيس تحرير جريدته التي تنطق بمبادئه السياسية الاستاذ عبد القادر حمزة صاحب جريدة « البلاغ » قال : ومن الفضول على ما اظن ان احاول تصوير سعد باشا كاتبا وخطيبا فان خطبه وبياناته تملأ اسماع مصر والشرق والناطقين بالضاد جميعا والغربيون الذين لا يقرأون هذه الخطب والبيانات إلا منقولة الى لغاتهم بعد ان تكون قد فقدت اسلوبها وبلاغتها يشهدون لصاحبها بانه يملك زمام قارئيه وسامعيه ولكني احب ان اقول هنا شيئا يقوله سعد باشا نفسه عن نفسه وهو انه لا يقول اذا قال ولا يكتب اذا كتب إلا بدافع من عقيدته ووجدانه فهذا هو على ما اظن سبب كبير من اسباب نجاحه في كل خطبه وكتاباته .

«وا كثر ميله حين يكتب الى الاملاء اما حين يخطب فانه لا يحب إلا الارتجال. وقد يلجأ الى الالقاء حينما تقيده المواقف السياسية بقيود الالفاظ ولكن ذلك يكون حينئذ عبأ على نفسه حتى انه ليهجر الورق بعد قليل ويطلق لسانه من غله الثقيل .

« وطريقته هي انه يعنى بالمعنى قبل كل شيء فيهتم ان يكون قويا وجليلا فاذا استوى له اخرجه في لفظ قوي جليل حريصا دائما على ان يكون السياق منطقيا غير زائد عن المعنى ولا ناقص . كذلك هو في كتابته او خطابته او حديثه فاذا انت قرأته او سمعته خلت انه ينهض بك الى مستوى رفيع .

«واذا كان ذهنه متجها دائما الى قوة المعنى ورقة التعبير . فكثيرا ما يجد له حتى في خطبه الارتجالية وخاصة حينما يكون منفعلا كلمات تنطبع في ذهنك فتتمثل في ذلك صورا حية ، تشعر كانك تراها بعينك وتلمسها بيدك . مثال ذلك قوله في مشروع ملنر حينما اختلف الناس «هل هو حماية او استقلال »

(١) ع . م . العقاد .

« انه حماية بالثلث » ثم قوله في احدى المفاوضات « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » .

❀❀❀

« تجسمت في سعد فكرة مصر في عصره بكل قوة الايمان الوطني لذلك آمن الشعب به وقدس آماله في شخصه . لذلك لم يمت سعد لانه فكرة هذه الآمال وذكراها المتجددة في نفس الشعب . وسعد حري بهذه المكانة التي بوأه الشعب اياها فقد كان عظيما منذ نشأ عظيما حتى مات (٢) »

« كان زعيما بفطرته ، يساير الشعب ثم يملك زمامه ويستولي على قياده ويسير به الى حيث يشاء فلا ينبو الشعب في كفه . أيسع غير قوة جبارة ان تطوي كل قوة اخرى وان تثور بها الاعاصير من كل ناحية فتثبت وتصلب وتجمع في نفسها على الرغم من كل شيء قوة الحكمة وقوة الشعب وقوة «البرلمان» حتى لقد كان يسعه ان يقول انه مصر (٣) .

و « ان التاريخ سيعتبر « سعد زغلول » بلا ريب اعظم شخصية انجبتها مصر الحديثة (٤) « فلقد كان للمترجم عنه نفوذ مغناطيسي على المصريين وكانت مواهبه تبدو في نداءاته للرأي العام اكثر مما تبدو في المفاوضات « الدبلوماسية» الدقيقة ويمكن ان تصف حياته السياسية بانها تقدم من المحافظة الى التطرف (٥) وقد وصفه « اللورد كرزن » ذات مرة بانه « زعيم غير مسؤول للهياج » .

وحسبك ان تقرأ قول جريدة التايمس فيه عام ١٩٠٦ فتعرف من خسرت مصر اليوم « زغلول من شيعة محمد عبده الذين امتازوا بالارتقاء والتهذيب وهم الذين اسماهم اللورد كرومر « فريق الجيروند » في النهضة الوطنية المصرية ، وهو مصري عريق في وطنيته أجمع الناس على اكرامه والاعجاب به لما اشتهر عنه من الاستقامة والاستقلال » .

واحسن شهادة في الرجل قول « اللورد كرومر » العميد البريطاني في مصر

(٢) م حسين هيكل « السياسة الاسبوعية» العدد ٧٧

(٣) أ . عبدالقادر المازني في جريدة « الاتحاد » المعارضة لسياسة زغلول»

(٤) جريدة التيمس اللندنية .

(٥) جريدة « الديلي تلغراف » الانكليزية .

في خطبته التي ودع بها البلاد المصرية :

« واني لاذكر ايها السادة اسم رجل قد علمتني معاشرتي القصيرة له ان احترمه احتراما عظيما ، واذا اصاب ظني ولم يخطيء يكون امام ناظر المعارف الجديد سعد زغلول باشا مستقبل عظيم في سبيل خدمة هذه البلاد ومنفعتها لانه حائز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده ، فهو رجل صادق كفو مستقيم مقتدر ، بل هو رجل شجاع فيما هو مقتنع به » .

❀❀❀

كان سعد زغلول رجلا اجتمعت فيه صفات جليلة قومت تلك الشخصية الكبيرة ، منها : الجلادة والقوة الادبية مع جد ونشاط في الشباب والشيخوخة اذ كان في شيخوخته انشط من كثير من الشبان مع ملكات ومواهب نادرة ممتازة كالذكاء وسرعة الخاطر وحدة الذهن وحضور الجواب وفصاحة متدفقة ومنطق خلاب مع شيء من الصلابة والقوة والعنف « افاده في ظروف حياته كما جنى عليه في بعض ظروفها (٦) » .

وكان محدثا عذب الحديث ، فكها حاضر النكتة رقيق المعاشرة .

ومن براعته في الجدل انه كان لبقا شديد المراس تعرض عليه الحجة محاولا نقض رأيه فما يلبث ان يعدل بحجتك حتى يتخذها سندا لرأيه وقد نوه بخلال سعد السرية « قاسم امين » لما اهدى اليه كتابه « المرأة الجديدة » فقال في كلمة الاهداء : « ان السعادة كل السعادة في حوار من كان له عاطفة سعد وتفكيره وقلبه » .

ومن اقواله المأثورة :

كل امر يقف في طريق حريتنا لا يصح ان نقبله مطلقا مهما كان مصدره عاليا ومهما كان الامر به .

كل تقييد للمصريين لابد ان يكون له مبرر من قواعد الحرية نفسها وإلا كان ظلما .

قد عاهدت الله منذ نشأت على ان اصرح بما في ضميري وهذه هي لذتي في حياتي .

(٦) م . ح هيكل .

الصحافة حرة في حدود القانون ما تشاء وتنتقد ما تريد ، فليس من الرأي ان نسألها لم تنتقدنا بل الواجب ان نسأل انفسنا لم نفعل ما تنتقدنا عليه.

نحن نحب الحرية ولكننا نحب اكثر منها ان تستعمل في موضعها .

جميل جدا ان يقال لاتحجروا على الناس ولا تقيدوا حريتهم وانها لنغمة لذيذة يحسن وقعها في الاسماع والقلوب . ولكننا لانريد الحجر على الناس ولا تقييد حريتهم بل نريد حماية الحق وصيانته من ان يتمتع به غير صاحبه من حيث يحرم منه صاحبه .

ومن خلقه الكريم شدة وفائه لانصاره وحبه الخالص لاصدقائه « ولم يفهم سعد إلّا من خاصمه سياسيا وخاصمه للمصلحة العامة دون سواها . كان سعد رجلا وكفى انه كان كذلك (٧) » .

حقا « ان زغلول باشا هو المصري بين جميع المصريين الذين كان نادر الفطنة والشرف كسياسي ، وكان يقصد ما يقول ، وينفذ ما يعد . تلك صفات سببت نفيه ثلاث مرات ولم يستطع الانكليز اغراءه بان يقبل لمصر ظل الحرية مع اختصاصه هو بنفوذ حقيقي وظهور عظيم لشخصيته (٨) .

ومن صفاته الباهرة بل ومن اسرار عظمته تسامحه الديني ، فقد ولد مسلما وكل ما بدا منه طول عمره دل على شدة العقيدة ، وطالما افتخر بانتسابه الى الازهر ؛ ولكنه كان مع ذلك آية في التسامح الديني يعالج داء عضالا في المجتمع الشرقي وقد عمل جهده في مدة زعامته في مكافحة هذا الداء بالقول والعمل فلم يميز بين المسلم والنصراني واليهودي في خدمة البلاد والحقوق والواجبات ، ولا سيما عندما كان رئيسا للوزارة المصرية . فقد زاره جماعة من السوريين المتمصرين على اثر انتقاء اعضاء مجلس الشيوخ المصري وشكروه على تعيين ثلاثة من النصارى منهم اعضاء في المجلس المذكور ، فاجابهم: « اني لااعرفهم بهذا الوصف بل اعرفهم مواطنين مصريين وعليهم ان ينهضوا بعبء العمل كما ينهض اخوانهم . »

(٧) أ . الرافعي صاحب « الاخبار » وكان من خصومه السياسيين في بعض المواقف.

(٨) جريدة المانشستر كارديان الانكليزية .

لم يؤلف سعد تأليفا خاصا لانصرافه الى الاشغال السياسية وما تقتضيه من الكتابة والخطابة . وقد ذكر انه لخص في صبح شبابه كتاب « ابن مسكويه » وطبع منه اغلبه . ولكنه كتب مقالات كثيرة في جرائد « مصر » و« البرهان » و« المحروسة » وغيرها وكلها ترمي الى التحرر والانعتاق من اغلال الاجنبي . جمع من خطبه كتب عديدة ولا يزال بعضها منثورا في الصحف والمجلات .

❀❀❀

واول ما اعتراه المرض في اواخر حياته كان بمصيفه في (مسجد وصيف) يوم الاثنين الـ ١٥ من آب سنة ١٩٢٧ اذ اصابته « الحمرة » فارتفعت حرارة جسمه ، فعاده الاطباء واسعفوه ثم قرروا نقله الى القاهرة فرجع اليها على الباخرة النيلية (محاسن) واطمأن في داره . وظهر التحسن في صحته ، ولكنه اصبح يوم الاثنين تعبا وعادت حرارته فارتفعت وفي صبح الثلاثاء تهامس اخصاؤه بان حياته في خطر . وشعر هو بدنو اجله ، وكان آخر ماقاله لزوجته النبيلة « اني انتهيت » . وظل طول ذلك اليوم محتبس اللسان حتى فاضت روحه الساعة العاشرة مساء (الثلاثاء ٢٣ آب ١٩٢٧) فاصدر مجلس الوزراء المصري بلاغا رسميا بالفاجعة ، كما نشرت ادارة الامن العام تظام تشييع الجنازة وقد شيع جثمانه الى مرقده الاخير بموكب فخم لم يشهد المصريون تشييعا مثله لعظيم من عظمائهم في القرن الاخير . وطفحت الصحف المصرية ، وكذلك الصحف العربية والافرنجية بالبحث عنه ووصف عظم الرزء فيه واتشحت بالحداد عليه ثلاثة ايام وبكته الاقلام ورثاه الشعراء .

وقرر مجلس الوزراء تخليدا لهذا الرجل العامل :

١ — ان يقام له تمثال في القاهرة وآخر في الاسكندرية ينصبان في اهم الميادين العامة في المدينتين .

٢ — ان تشتري الحكومة بيته المسمى بيت الامة » وتضمه الى الاملاك العمومية المخصصة بالمنافع العامة ، على ان يبقى حق السكنى فيه لحرم الفقيد مدى الحياة .

٣ — ان ينشأ مستشفى او ملجأ في القاهرة يطلق عليه اسم « سعد زغلول » .

٤ــ ان تشتري الحكومة البيت الذي ولد فيه ببلدة « أبيانة » بمركز « فوه » بمديرية الغربية وتضمه الى الاملاك العامة المخصصة بنفع الجمهور .

❀❀❀

ومما يروى عن مترجمنا في مواقف غيرته وعنفه ان ساقه الحديث يوما وهو وزير للحقانية امام الخديوي عباس حلمي الثاني فاندفع برغم حجته بالبراهين ثم دق بيده على المنضدة دافعا حجة امير مصر قائلا « انا الوزير المسؤول فلا بد من اقرار مشروعي » شأنه في ذلك امام منضدة المحكمة حينما كان يدفع حجة زميله المحامي .

ووفد عليه في احدى الايام جمهور من الفلاحين فقصت بهم ساحة بيته ، فخرج اليهم وجلس على الارض معهم وهو يقول « انا فلاح مثلكم » لذلك قالت فيه جريدة « افنك استنارد » « كان له دهاء الفلاحين يشبه الرئيس كروكر فقد كان كلاهما وطنيين مخلصين متفانين في اخلاصهما لكن زغلول اقل فظاظة من كروكر . » وشبهته لمصر جريدة «شفيلد ديلي تلكراف » « بدفاليرا »لارلندة وقالت ان غريزته السياسية اعظم من غريزة « دفاليرا » .

رفائيل بطي

﴿ بعيجة لا بيجي ﴾

Bu 'aidjeh

دجلة في انحدارها من الموصل الى بغداد تمر بموطن ضيق يظهر للرائي كأن دجلة تبعج المكان ، فترى السماء بين الحالقين او الجبلين فسمى الاهلون ذلك الموطن « بعيجة » (بالتصغير) ولما كان الانكليز لا يستطيعون ان يلفظوا العين لفظا صحيحا حذفوها فقالوا « بيجة » ثم ان اهالي تلك الانحاء يميلون بلفظ الهاء الى الياء فقالوا بيجي واليوم لا تسمع من افواه الاهالي انفسهم إلّا « بيجي » اي بفتح الباء واسكان الياء وكسر الجيم وبياء ساكنة في الاخر ومنهم من يشددها . فاذا مر قرن على مسخ هذه اللفظة ، فمن ذا الذي يعرف اصلها ؟ ــ ذلك من اثر القوي في الضعيف .